

تقديم كتاب مايكل ساندل
استبداد الجدارة: ما مصير الصالح العام؟
أ. مُجَّد الحداد
ص ص: 89 – 106



تقديم كتاب مايكل ساندل
استبداد الجدارة: ما مصير الصالح العام؟
Introducing Michael Sandel's book

**The Tyranny of Merit : What's Become of the Common
Good?**

أ. مُجَّد الحداد *

جامعة سيدي مُجَّد بن عبد الله، فاس. المغرب، haddadphilo@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/20 تاريخ القبول: 2022/09/21 تاريخ النشر: 2022/09/30

Summary

In his recently published book, *The Tyranny of Merit : What's Become of the Common Good?* Sandel attempts to diagnose the crisis situation and the profound transformation in American society, Showing how over the past four decades the social bonds in this society and the mutual respect between citizens each other have collapsed. Sandel argues that in recent decades, the divide between winners and losers has been deepening, poisoning politics, setting fellow citizens apart. This divide is partly about inequality. But it's also

الملخص

يحاول الفيلسوف الأمريكي مايكل ساندل في كتابه الأخير "استبداد الجدارة: ما مصير الصالح العام؟" تشخيص الوضعية المتأزمة والتحول العميق في المجتمع الأمريكي، مبينا كيف أنه على مدى العقود الأربعة الماضية انهارت الروابط الاجتماعية في هذا المجتمع والاحترام المتبادل بين المواطنين. فقد تعمق الانقسام بين الفائزين والخاسرين مما سمم مجال السياسة وفرق المواطنين بعضهم عن بعض. وهذا الانقسام يعود، في نظره، جزئيا، إلى عدم المساواة والتفاوت

أ. مُجَّد الحداد: haddadphilo@gmail.com *



about the attitudes toward winning and losing that have come with it. Those who landed on top came to believe that their success was their own doing, a measure of their merit, and that those who lost out had one to blame but themselves. The result is that those on top look down upon those on bottom. The consequence is a brew of anger and frustration that has fueled populist protest and extreme polarization, and led to deep distrust of both government and fellow citizens. So Sandel argues that to overcome the rancorous politics of our time, we must rethink the attitudes towards success and failure that have accompanied globalization and rising inequality. This book seeks to explain and illustrate how this transformation occurred by highlighting the hubris meritocracy generates among the winners and the harsh judgement it imposes on those left behind. He offers an alternative way of thinking about success- more attentive to the role of luck in human affairs, more conducive to an ethic of humility, more affirming of the dignity of work and more hospitable to a politics of the common good.

Keywords : meritocracy; merit; deservingness; hubris; common good.

والاجتماعي. لكنه يتعلق أيضا بالسلوكيات تجاه الفوز والخسارة التي تأتي معه. فأولئك الذين وصلوا القمة يعتقدون أن نجاحهم هو من صنعهم ومقياس لجدارتهم، والذين أخفقوا لا يجب أن يلوموا سوى أنفسهم. والنتيجة هي أن من هم في القمة ينظرون إلى من هم في الأسفل بازدراء. وبالتالي اندلاع موجة من الغضب والإحباط غذت الاحتجاجات الشعبية والاستقطاب الشديد، وأدت إلى انعدام ثقة عميق في كل من الحكومة والأحزاب والمواطنين. لذا يحتاج ساندل بأنه للتغلب على السياسات الحاقدة في عصرنا، يجب علينا إعادة التفكير في المواقف تجاه النجاح والإخفاق التي رافقت العولمة والتفاوتات المتزايدة. وكتابه هذا يسعى إلى شرح وتوضيح كيف حدث هذا التحول بتسليط الضوء على الغطرسة الميرطوقراطية التي تنشأ بين الفائزين والحكم القاسي الذي تفرضه على أولئك الذين تحلفوا عن الركب. وهو يقدم طريقة بديلة للتفكير في النجاح أكثر انتباها لدور الحظ في الشؤون الإنسانية، وأكثر ملاءمة لأخلاقيات التواضع، وتأكيذا أكثر لكرامة العمل، ودعوة للنظر في الكيفية التي قد نجد بها طريقنا إلى سياسة للصالح العام.

الكلمات المفتاحية: الميرطوقراطية؛ الجدارة؛ الاستحقاق؛ الغطرسة؛ الصالح العام.

تقديم كتاب مايكل ساندل
استبداد الجدارة: ما مصير الصالح العام؟
أ. محمد الحداد



Michael Sandel

The Tyranny of Merit

What's Become of the Common Good?

First published in the United States of America by Farrar, Straus
and Giroux 2020, New York

First published by Allen Lane 2020, Londres

التقديم:

يستهل ساندل الصفحات الأولى من الكتاب بالحديث عن جائحة كورونا، وكيف أن الولايات المتحدة، مثلما هو حال عديد من البلدان الأخرى لم تكن مستعدة لهذه الأزمة الصحية، وتجاهل السياسيين ورؤساء الدول لتحذيرات مستشاري الصحة العمومية. ولكن، بغض النظر عن افتقارها للتأهب اللوجستيكي، يؤكد ساندل أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة أخلاقيا لمواجهة هذه الجائحة. حيث كانت السنوات التي سبقت الأزمة فترة انقسامات عميقة اقتصادية وثقافية وسياسية، وحيث أدت عقود من عدم المساواة والتفاوتات المتزايدة والاستياء الثقافي إلى رد فعل شعبي غاضب في عام 2016، مما أدى الى انتخاب دونالد ترامب الذي وجد نفسه يترأس أخطر أزمة واجهتها البلاد منذ هجمات الحادي عشر من شتبر 2001.

من الناحية الأخلاقية اعتبر ساندل أن الوباء ذكرنا بضعفنا واعتمادنا المتبادل على بعضنا البعض. وفي غضون ذلك أصبح الذين حصدوا المكافآت الاقتصادية للأسواق العالمية ولسلاسل التوريد ولتدفقات رأس المال يعتمدون أقل فأقل على زملائهم المواطنين كمنتجين ومستهلكين. وبينما كان الفائزون في العولمة يتعدون عن

المجلد الثالث

العدد الأول

سبتمبر 2022

مجلة تدفقات فلسفية

أكاديمية دولية محكمة

ISSN : 2716 – 8697



الخاسرين ويمارسون نوعهم الخاص من التباعد الاجتماعي، أوضح الفائزون أن الانقسام السياسي ذات الأهمية لم يعد هو اليسار في مقابل اليمين، وإنما هو الانفتاح في مقابل الانغلاق. ففي عالم مفتوح يعتمد النجاح على التعليم وعلى تجهيز نفسك للمنافسة والفوز في الاقتصاد العالمي. وهذا يعني أنه يجب على الحكومات الوطنية ضمان حصول الجميع على فرصة متساوية للحصول على التعليم الذي يعتمد عليه النجاح. ولكنه يعني أيضا أن أولئك الذين وصلوا إلى القمة يعتقدون أنهم يستحقون نجاحهم. وإذا كانت الفرص متساوية حقا فهذا يعني أن من تخلفوا عن الركب يستحقون مصيرهم أيضا.

يؤكد ساندل أن هذه الطريقة في التفكير في النجاح تقود الفائزين لاعتبار نجاحهم من صنعهم الخاص، وتقود الخاسرين إلى الشعور بأن من هم في القمة ينظرون إلى منهم في الأسفل بازدراء. وهذا المزيج المسموم من الغطرسة والاستياء الذي دفع ترامب إلى السلطة - يقول ساندل وهو يقصد الأمريكيون- ليس مصدرا محتملا للتضامن الذي نحتاجه اليوم. ولذا فإن أي أمل في تجديد حياتنا الأخلاقية والمدنية يعتمد على فهم كيف انهارت على مدار العقود الأربعة الماضية روابطنا الاجتماعية واحترامنا لبعضنا البعض. وكتابه هذا يسعى إلى شرح وتوضيح كيف حدث ذلك، وإلى النظر في الكيفية التي قد نجد بها طريقنا إلى سياسة للصالح العام.

بعد أن وقف في مدخل الكتاب عند مسألة أخلاقيات القبول في الجامعة، حيث شكك في الاعتقاد السائد لدى من وصلوا إلى القمة بأن نجاحهم له ما يبرره أخلاقيا، وفي إيمان الفائزين بأنهم حققوا نجاحهم من خلال موهبتهم الخاصة وعملهم الجاد، وأنه أمر متناقض القبول على أساس الجدارة، ما دام أن الذين تم قبولهم بناء على



سجلاتهم المتألفة والشرعية يفخرون بإنجازاتهم، ويعتبرون أنهم قد ولجوا اعتمادا على أنفسهم؛ لكنهم ينسون أن هذا ليس من صنعهم الخاص فقط، بل فيه مساهمة مهمة للآباء والمدرسين الذين ساعدوهم في مسارهم، وللمواهب والهبات التي ليست من صنعهم بالكامل، وللحظ السعيد لعيشهم في مجتمع يُنمي المواهب التي صادف أنهم يمتلكونها ويشي عليها؛ بعد ذلك ينتقل المؤلف في الفصل الأول للحديث عن ما سماه بـ "فائزين وخاسرين" (Winners and Losers). حيث يستهله بتشخيص السخط والاستياء الشعبي ضد النخب السياسية الحاكمة والأحزاب السياسية الرئيسية، سواء في الولايات المتحدة أو في أوروبا. ويعتبر أن المخاوف والإحباطات والمظالم المشروعة للطبقة الكادحة هي أيضا ذات صلة وثيقة بما هو أخلاقي وثقافي، إنها لا تتعلق بالأجور والوظائف، بل أيضا بالاحترام والتقدير الاجتماعي. فاهليجات وردود الأفعال الشعبية العنيفة هي، في نظره، استجابة سياسية تجاه فشل سياسي للأحزاب السائدة على مدى العقود الأربعة الماضية التي صممت ونفذت من خلالها مشروع العولمة.

هنا يشير ساندا إلى جانبين من هذا المشروع أديا إلى نشوء الظروف التي تغذي الاحتجاجات الشعبية: الأول هو الطريقة التكنوقراطية في إدراك وتصور الصالح العام. والثاني هو الطريقة الميرطوقراطية لتحديد الفائزين والخاسرين.

فالمفهوم التكنوقراطي للسياسة يرتبط بالأيمان بأن الأسواق وميكانيزماتها هي الأدوات الأساسية لتحقيق الصالح العام. وهذه الطريقة في التفكير في السياسة، حسب ساندا، هي تكنوقراطية بالمعنى الذي يجعلها تُفرغ الخطاب العمومي من الحجج



الأخلاقية الجوهريّة، وتعامل المسائل التي هي محل خلاف إيديولوجي كما لو كانت مسائل متعلّقة بالكفاءة الاقتصادية أو اختصاص الخبراء.

إن الاستياء الذي يشعر به العديد من ناخبي الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة ضد النخب يمكن القول، حسب ساندل، أن مرده هو تنامي التفاوت وعدم المساواة في العقود الأخيرة. لكنه يعتبر أن هذا التفاوت ليس هو المصدر الأساسي للغضب الشعبي، وإنما مصدره هو سيادة خطاب ميريتوقراطي، هو ما يسميه بـ"خطاب الارتقاء" (The rhetoric of rising)، الذي ينص على أن أولئك الذين يعملون بجد ويلعبون وفقا للقواعد يجب أن يكونوا قادرين على الارتقاء الاجتماعي صعودا بقدر ما ستأخذهم مواهبهم وعملهم الجاد. هذا الخطاب، حسب ساندل، يبدو أجوفا وفقيرا من حيث المضمون، ذلك أنه في اقتصاد اليوم ليس من السهل تحقيق ارتقاء اجتماعي. فالأطفال المولودون لآباء فقراء وعائلات معوزة يظلون فقراء عند كبرهم، والآباء الأغنياء قادرون على توريث مزاياهم لأطفالهم. كما أنه في الجامعات المرموقة على سبيل المثال هناك عدد أكبر من الطلاب المنحدرين من الطبقات الراقية المصنفة في الأعلى 1 في المئة. لكن المشكلة، حسب ساندل، ليست في أننا غير قادرين على مجارة المبادئ الميرتوقراطية التي نصرح بها، وإنما في أن المبدأ كله مغلوط وله جانب مظلم. فبالإضافة إلى كون الاستحقاق يؤدي إلى تقويض الصالح العام، فهو يؤدي إلى الغطرسة بين الفائزين والإهانة بين الخاسرين، وهذه المشاعر الأخلاقية هي جوهر الانتفاضة الشعبية ضد النخب.



إن غطرسة الميرطوقراطية، حسب ساندل، تعكس ميل الفائزين إلى استنشاق نجاحهم بعمق ونسيان الحظ والثروة والفرص الموازية التي ساعدتهم في طريقهم. والفكرة التي تنص على أن النظام يكافئ المهوبة والعمل الجاد تشجع الفائزين على اعتبار نجاحهم هو من صنعهم وهو مقياس لجدارتهم، وأن ينظروا إلى من هم أقل حظاً منهم بازدراء. وهذا الاقتناع المتعجرف لأولئك الذين يتبوؤون القمة بأنهم يستحقون مصيرهم ومآلهم، وأن منهم في الحضيض يستحقون مصيرهم ومآلهم أيضاً، هو القرين الأخلاقي للسياسات التقنوقراطية.

في الفصل الثاني الذي جاء بعنوان "عظيم لأنه جيد: تاريخ أخلاقي موجز للجدارة" (Great Because Good: A Brief Moral History Of Merit)، ينطلق ساندل من التساؤل التالي: إذا كان التوظيف والعمل على أساس الجدارة هو ممارسة جيدة ومعقولة، فما الذي من المحتمل أن يكون خطأ في الميرطوقراطية؟ وكيف يمكن لمبدأ حميد مثل الجدارة أن يغذي سيلاً من الاستياء قويا لدرجة أنه يغير سياسات المجتمعات الديمقراطية عبر جميع أنحاء العالم؟ ومتى أصبحت الجدارة سامة (turn toxic)، وكيف أصبحت كذلك؟

للجواب على ذلك، يقوم ساندل باستعراض تاريخي موجز لفكرة الجدارة واستحضاره لما يسميه بـ "تفكير العناية (الإلهية)" (providential thinking) ماضياً وحاضراً. حيث يؤكد بهذا الصدد أن الميرطوقراطية في يومنا هذا تحمل بصمة الخلاف اللاهوتي الذي نشأت عنه. فقد بدأت أخلاقيات العمل البروتستانتية كجدلية متوترة بين الفضل الإلهي والجدارة، وفي النهاية انتصرت الجدارة على الفضل الإلهي،



وطغت أخلاقيات التمكّن وصنع الذات (self-making) على أخلاقيات الامتنان والتواضع، وأصبح العمل والكفاح ضرورة في حد ذاتهما منفصلين عن المفاهيم الكلفانية عن الأقدار والبحث الحثيث عن علامة الخلاص.

لكن أن نصبح ننظر إلى الصحة والثروة مثلا على أنهما مسألتي إشادة ولوم، فهذا يعتبر طريقة ميرطوقراطية للنظر إلى الحياة. طريقة لا تُنسب أي شيء إلى الحظ أو الفضل الإلهي وتحملنا المسؤولية الكاملة عن مصيرنا. فكل ما يحدث يعتبر مكافأة أو عقوبة للخيارات التي نقدم عليها وللطريقة التي نحيا بها. وهذه الطريقة في التفكير تشيد بالأخلاقيات المغالية في التمكين والتحكم (mastery and control)، وتؤدي إلى الغطرسة الميرطوقراطية. إنها تدفع الناجحين إلى أن ينظروا باستخفاف إلى ضحايا المحن باعتبارهم مستحقين للوم على وضعيتهم.

لذلك يعتبر ساندل أننا في أيامنا هذه ننظر إلى النجاح بنفس الطريقة التي كان ينظر بها المتشددون إلى الخلاص، ليس على أنه مسألة حظ أو فضل إلهي وإنما كشيء ننال من خلال مجهودنا وسعينا وكفاحنا. وهذا هو جوهر الأخلاق الميرطوقراطية. إنها تشيد بالحرية -أي القدرة على التحكم في مصيري بفضل العمل الجاد- والاستحقاق (deservingness). فإذا كنت أنا المسؤول عن حصولي على حصة كبيرة من الخيرات الدنيوية -الدخل والثروة والسلطة والجاه- فيجب أن أكون مستحقا لها. إذ أن النجاح هو علامة على الفضيلة، وبحبوتي وترفي هو مستحق لي. لكن، حسب ساندل، طريقة التفكير هذه، مع أنها تشجع الناس على اعتبار أنفسهم مسؤولين عن مصيرهم وليسوا ضحايا لقوى خارجة عن إرادتهم، إلا أنها أيضا لها جانب سلبي. إذ أنه



كلما نظرنا إلى أنفسنا على أننا عصاميون ومكتفون ذاتيا، قل احتمال اهتمامنا بمصير أولئك الأقل حظا منا. فإذا كان نجاحي من صنيعي فإن فشلهم يجب أن يكون خطؤهم. وهذا المنطق يجعل الميرطوقراطية مفسدة للقواسم المشتركة. وإن الفكرة الصارمة عن المسؤولية الشخصية تجعل من الصعب تخيل أو تصور أنفسنا مكان الآخرين.

في الفصل الثالث، الذي يحمل عنوان "خطاب الارتقاء" (The rhetoric of rising)، يحاجج ساندل أنه على مدى العقود الأربعة الماضية، عمقت الادعاءات الميرطوقراطية قبضتها على الحياة العامة للمجتمعات الديمقراطية. وأنه حتى مع تعمق التفاوت وعدم المساواة، عززت الثقافة العامة فكرة أننا مسؤولون عن مصيرنا وأنها نستحق ما نناله. بحيث يبدو الأمر كما لو كان الفائزون في العولمة بحاجة إلى إقناع أنفسهم، وكل الآخرين، بأن أولئك الذين يتبوؤون القمة ومن هم في الحضيض قد تموقعوا حيث يجب أن يتموقعوا. ولذا يعتبر أن الجدل السياسي بين الأحزاب السائدة قد انصب في العقود الأخيرة بشكل أساسي حول نقاش كيفية تحقيق تكافؤ الفرص، حيث يكون الناس قادرين على الارتقاء بقدر ما ستأخذهم جهودهم ومواهبهم.

يشير ساندل أن الأخلاقيات الميرطوقراطية حاضرة بشكل ضمني في بعض الأحيان في نزعة السوق الحرة المحافظة (مارجريت تاتشر ودونالد ريغان). وقد بلغت أقصى درجات التعبير عنها في سياسات شخصيات يسار الوسط مثل توني بلير وبيل كلينتون. وتكمن حجة يسار الوسط الليبرالية الصديقة للسوق منذ التسعينيات إلى عام 2016 في تمكين الجميع من التنافس على قدم المساواة وفي ظل شروط منصفة وبدون



أي تمييز. إذ أن القضاء على التمييز وتوسيع الفرص من شأنه أن يجعل الأسواق أكثر إنصافاً، كما أن تجنيد مجموعة أكبر من المواهب سيجعل الأسواق أكثر إنتاجية. لكن وبغض النظر عن الإنصاف والإنتاجية، يعتبر ساندل أن الحجة الليبرالية تشير أيضاً إلى أمر ثالث أكثر أهمية ويدعم ضمناً منطق وعقلانية السوق. وهو أن تمكين الناس من التنافس فقط على أساس الجهد والموهبة سيجعل نتائج السوق متوافقة مع الجدارة. إذ أنه في مجتمع تتساوى فيه الفرص حقاً ستمنح الأسواق الناس مئوبتهم العادلة.

لذا فعلى مدى العقود الأربعة الماضية أصبحت لغة الجدارة والاستحقاق مركزية في الخطاب العمومي. وتُظهر مظاهر التحول الميرطوقراطي هذه الجانب الصعب في الميرطوقراطية. وهذا الجانب حسب ساندل يجد تعبيره في المفاهيم الملحة للمسؤولية الشخصية التي رافقت محاولات كبح جماح دولة الرفاه وتحويل المخاطر من الحكومات والشركات إلى الأفراد. أما الجانب الثاني من التحول الميرطوقراطي فيعتبر أنه أكثر طموحاً. إنه يجد تعبيره فيما يسميه بخطاب الارتقاء، والوعد بأن أولئك الذين يعملون بجد ويلعبون وفقاً للقواعد يستحقون الارتقاء بقدر ما ستأخذهم مواهبهم وأحلامهم. ولذا فإن خطاب المسؤولية وخطاب الارتقاء ساهما، في نظره، بتنشيطهما للحجة السياسية في العقود الأخيرة، في رد الفعل الشعبي العنيف ضد الميرطوقراطية.

يؤكد ساندل أن المظالم الشعبية تجاه (ضد) النظام القائم لم تكن كلها ردود فعل ضد الغطرسة الميرطوقراطية. فقد كان بعضها متداخلاً مع كراهية الأجانب والعنصرية والعداء للتعددية الثقافية. لكنه يعتبر أن رد الفعل الشعبي العنيف كان مُستفزاً في جزء



منه على الأقل بالإحساس الحانق من أن أولئك الذين تبوؤوا المراتب العليا للجدارة قد نظروا بازدراء إلى أولئك الذين اعتبروهم أقل إنجازا منهم. وهذا التذمر الشعبي مرده إلى ترديد النخب الميرطوقراطية الخطاب الذي ينص على أن الذين يعملون بجد يمكنهم أن يرتقوا، ولم ينتبهوا أن هذا الخطاب، بالنسبة لأولئك الجامعين في الحضيض ويكافحون من أجل البقاء، لم يكن وعدا بقدر ما كان تهكما.

في الفصل الرابع المخصص للحديث عن الأهلية (Credentialism)، يحاول ساندل أن يبين أن اللجوء إلى ترسانة المؤهلات الجامعية يجعل الجدارة نوعا من الاستبداد. لذلك يؤكد، في هذا الصدد، أن أولئك الذين تبنا المشروع الميرطوقراطي أدركوا أن المساواة الحقيقية في الفرص تتطلب أكثر من استئصال التمييز. إنها تتطلب تسوية ميدان اللعب، وذلك حتى يتمكن الناس من جميع الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية من شحذ أنفسهم للمنافسة بفعالية في اقتصاد عالمي قائم على المعرفة. وقد أدى هذا إلى قيام الأحزاب السائدة في التسعينيات وسنوات الألفين بجعل التعليم محور استجاباتها للتفاوت وركود الأجور وفقدان الوظائف.

هنا يؤكد ساندل أنه عندما تربط النخب الميرطوقراطية النجاح والفشل بشكل وثيق بقدرة الفرد على الحصول على شهادة جامعية، فإن هذه النخب تلوم ضمنا أولئك الذين ليس لديهم شهادة نظرا للظروف القاسية التي يواجهونها في ظل الاقتصاد العالمي. كما أنها تُعفي نفسها من مسؤولية دعم السياسات الاقتصادية التي تُعلي من قيمه الأجور التي تمنحها الشهادة الجامعية. ثم إنه بإخبار العمال أن تعليمهم غير الكافي أو غير المناسب هو الملام على مشاكلهم ومخنهم، فإن الميرطوقراطيون يُلقون باللائمة



الأخلاقية على النجاح والفشل ويروجون بغير قصد لمسألة الأهلية، وهو تحيز خبيث ضد أولئك الذين لم يلتحقوا بالجامعة.

لذا يعتبر ساندل أن التحيز في مسألة الأهلية (the credentialist prejudice) هو أحد أعراض الغطرسة الميرطوقراطية. ومع اشتداد قبضة الادعاءات الميرطوقراطية في العقود الأخيرة، أصبح من عادة النخب النظر بدونية إلى الذين لا يرتقون. وإن الدعوة المستمرة للأشخاص العاملين لتحسين ظروفهم من خلال الحصول على شهادة جامعية، مهما كانت حسن النية، تثن (valorize) في نهاية المطاف الأهلية وتقوض الاعتراف الاجتماعي والاحترام لأولئك الذين يفتقرون إلى المؤهلات التي يكافئها النظام.

عموماً يخلص ساندل إلى أن الأهلية التي لا هوادة فيها (the relentless credentialism) في عصرنا قد دفعت الناخبين من الطبقة العاملة نحو الأحزاب الشعبوية والقومية التي عمقت الانقسام بين أولئك الذين يحملون وأولئك الذين لا يحملون شهادة جامعية. وبالتالي فإن إحدى النتائج السلبية المترتبة عن انتصار الميرطوقراطية تمثلت في فقدان الدعم الواسع للتعليم. ذلك أنه بمجرد أن يُنظر إلى الجامعة على نطاق واسع باعتبارها قاطرة ومحركاً للفرص، فإنها تصبح، على الأقل بالنسبة للبعض، رمزاً لامتياز الأهلية والغطرسة الميرطوقراطية.

لذا فإن خطاب الارتقاء بتركيزه الأحادي والمنفرد على التعليم كإجابة على التفاوت وعدم المساواة، هو، حسب ساندل، الملام جزئياً. ذلك أن بناء سياسة حول فكرة أن الشهادة الجامعية هي شرط للعمل الكريم والتقدير الاجتماعي، له، في نظره،



تأثير مدمر على الحياة الديمقراطية. إنه يحط من قيمة مساهمات أولئك الذين لا يتوفرون على ديبلوم ويؤجج التحيز ضد أعضاء المجتمع الأقل تعليماً، ويستبعد بفعالية معظم الأشخاص العاملين من الحكومة التمثيلية، ويثير ردود فعل سياسية عنيفة.

في الفصل الخامس الذي جاء بعنوان " أخلاقيات النجاح " (Success Ethics) يتساءل ساندل: ماذا لو كانت المشكلة الحقيقية مع الميرطوقراطية ليست في أننا فشلنا في تحقيقها، وإنما في أن مثالها ونموذجها معيبا؟ وماذا لو لم يعد خطاب الارتقاء مُلهما، ليس فقط لأن الحركة الاجتماعية (التزقي الاجتماعي) صعودا (social mobility) قد توقفت، وإنما بشكل أساسي، لأن مساعدة الناس على تسلق سلم النجاح في الميرطوقراطية التنافسية هي مشروع أجوف يعكس مفهوما فقيرا عن المواطنة والحرية؟

للتحري عن السؤال يؤكد ساندل أننا في حاجة إلى فحص اعتراضين اثنين على الميرطوقراطية كمشروع أخلاقي وسياسي. الأول يتعلق بالعدالة، والثاني يتعلق بالمواقف تجاه النجاح والفشل. حيث يشكك الاعتراض الأول في أنه حتى الميرطوقراطية المحققة بالكامل، والتي تعكس فيها الوظائف والأجور بشكل مثالي جهود الناس ومواهبهم، ستشكل مجتمعا عادلا. أما الثاني فيقلق من أنه حتى لو كانت الميرطوقراطية منصفة، فإنها لن تشكل مجتمعا جيدا. إذ أنه من شأنها أن تولد الغطرسة والجزع بين الراجحين والإذلال والاستياء بين الخاسرين؛ وهي مواقف تتعارض مع ازدهار الإنسان وتفسد الصالح العام.



إذا كان الاعتراض الأول، المتعلق بالعدالة، هو الأكثر شيوعاً في الأوساط الفلسفية، يؤكد ساندل، أن الاعتراض الثاني، المتعلق بالغطرسة والإذلال، قد يكون الأكثر حسماً وأهمية لفهم وضعنا السياسي الحالي. فالاحتجاج الشعبي ضد النخب الميرطوقراطية لا يتعلق بالإنصاف فحسب، بل يتعلق أيضاً بالتقدير الاجتماعي. ولفهم هذا الاحتجاج يتطلب الأمر فهم وتحديد وتقييم المظالم والاستياء الذي يؤججه؛ هل هو مشروع أو غير مشروع، وإذا كان مشروعاً فما الذي يمكن فعله لمعالجته.

يحتاج ساندل أن ما هو مهم بالنسبة للميرطوقراطية هو أن كل شخص لديه فرصة متساوية لتسلك سلم النجاح، لكن ليس لديها ما تقوله حول المسافة التي يجب أن تكون بين درجات السلم. وبالتالي فإن النموذج الميرطوقراطي ليس علاجاً للتفاوت ولعدم المساواة، وإنما هو تبرير لهما. وإذا كان المدافعون عن الميرطوقراطية يقولون أنه بشرط أن يتنافس الجميع على أرض لعب متكافئة، تكون النتيجة عادلة، لأنه حتى المنافسة العادلة لها راجحون وخاسرون، وأن ما يهم هو أن يبدأ الجميع السباق من نفس نقطة البداية وسيكون الفائز بالسباق مستحقاً للجائزة، ولا يوجد ظلم في واقعة أن البعض يركض أسرع من البعض الآخر، فإن ساندل يشكك في هذا الأمر ويثير مجموعة من التساؤلات: منها ما يتعلق بمواهبنا ما إذا كانت مستحقة لنا؛ ومنها ما يتعلق بالجهد المبذول ما إذا كان مستحقاً لنا؛ ليصل في نهاية المطاف إلى التأكيد أن ميل دولة الرفاه لتغذية سياسات الغطرسة والإذلال أصبح أكثر وضوحاً في أعمال الفلاسفة الليبراليين المساواتيين في الثمانينيات والتسعينيات.



في الفصل السادس من الكتاب والذي جاء بعنوان آلة الفرز (The Sorting Machine) يحتاج ساندل أن التغلب على استبداد الجدارة لا يعني أن الجدارة لا ينبغي أن تلعب أي دور في تخصيص الوظائف والأدوار الاجتماعية، وإنما يعني إعادة التفكير في الطريقة التي نتصور بها النجاح، والتشكيك في الغرور الميرطوقراطي الذي صنعه من هم في القمة بأنفسهم. وهذا يعني تحدي التفاوت وعدم المساواة في الثروة والتقدير أو الاحترام الاجتماعي التي يتم الدفاع عنها باسم الجدارة، ولكنها تعزز الاستياء وتسمم سياساتنا وتفرقنا عن بعضنا البعض. ويؤكد ساندل أن إعادة التفكير هذه يجب أن تركز على مجالين من مجالات الحياة الأكثر مركزية وأهمية في التصور الميرطوقراطي للنجاح، ألا وهما التعليم والعمل.

لذلك يوضح ساندل في هذا الفصل كيف أصبح التعليم العالي آلة فرز تعد بالحركية وبالارتقاء الاجتماعي صعودا على أساس الجدارة، ولكنها ترسخ الامتياز وتعزز المواقف تجاه النجاح التي تؤدي الى تلاشي القواسم المشتركة التي تتطلبها الديمقراطية.

إذا كانت الكليات والجامعات تترأس النظام الذي من خلاله تخصص المجتمعات الحديثة الفرص وتمنح الأهلية التي تحدد الولوج للوظائف ذات الرواتب العالية والمناصب المرموقة، فساندل يؤكد أن هذا الدور هو بالنسبة للتعليم العالي نعمة ونقمة. ذلك أن جعل الكليات والجامعات القلب الحيوي للطموح الميرطوقراطي يمنحها سلطة ثقافية ومكانة وهيبة. وقد جعل القبول في كليات النخبة هدفا لطموح محموم ومكن عددا من الجامعات الأمريكية من جمع أوقاف بمليارات الدولارات. لكن يشير ساندل إلى أن



تحويل هذه المؤسسات إلى معقل للنظام الميرطوقراطي قد لا يكون جيدا للديمقراطية أو للطلاب الذين يتنافسون لحضورها أو حتى للكليات والجامعات نفسها.

في الفصل السابع والأخير، المعنون بـ"الاعتراف بالعمل" (Recognizing Work)، يحاول ساندل أن يبين كيف يقوض استبداد الجدارة كرامة العمل. ذلك أنه من خلال الثناء على ذوي المؤهلات العالية للحصول على درجات جيدة في اختبارات القبول بالجامعة، فإن آلة الفرز الميرطوقراطي تقلل من شأن أولئك الذين ليس لديهم مؤهلات ميرطوقراطية. إنها تجعلهم يفهمون أن العمل الذي يقومون به، والذي يحظى في السوق بتقدير أقل من عمل المهنيين ذوي الأجور الجيدة، هو مساهمة أقل في الصالح العام، وبالتالي فهو أقل استحقاقا للاعتراف والتقدير الاجتماعي. ثم أنها تضيي الشرعية على المكافآت السخية التي يمنحها السوق للفائزين وعلى الأجر الهزيل الذي يقدمه للعمال الذين هم بدون شهادة جامعية.

هنا يقر ساندل أن أي استجابة جادة لإحباطات الطبقة العاملة يجب أن تجابه تعالي النخبة والأحكام المسبقة المتحاملة على الأهلية، والتي أصبحت منتشرة وسائدة في الثقافة العامة. كما يجب أن تضع كرامة العمل في قلب الأجنحة السياسية. وهذا ليس بالأمر الهين. ذلك أن الناس من مختلف القناعات الإيديولوجية ستكون لديهم رؤى وأفكار متنافسة حول ما يعنيه أن يحترم المجتمع كرامة العمل، لاسيما في وقت تهدد فيه العولمة والتكنولوجيا التي لا مفر منها، على ما يبدو، بتقويض هذه الكرامة. لكن الطريقة التي يُشرف بها المجتمع العمل ويكافئه هي أمر أساسي للطريقة التي يُحدد بها



الصالح العام. والتفكير في معنى العمل يُجبرنا على مواجهه الأسئلة الأخلاقية والسياسية التي نتجنبها في أغلب الأحيان، ولكنها كامنة دون إجابة في طيات استيائنا الحالي. عموما يقترح ساندل، من خلال هذا المؤلف، لتجاوز استبداد الجدارة، إعادة التفكير في ثلاث محاور لحياتنا المدنية: دور الكلية، كرامة العمل، ومعنى النجاح. ففيما يخص دور الكلية، يقول إن تشجيع الأفراد على الالتحاق بالجامعة، وتوسيع نطاق الولوج إليها شيء جيد جدا. لكن هذا ليس حلا لعدم المساواة. إذ يجب التركيز أكثر ليس على إعداد الأشخاص من أجل المباراة الميرطوقراطية، وإنما على جعل الحياة أفضل للأشخاص الذين يفتقرون إلى المؤهلات والذين يقدمون مساهمات أساسية لمجتمعنا، وهم لم يلجوا الكلية البتة.

أما فيما يخص كرامة العمل، فيقول إن علينا تجديد كرامة العمل ووضعها في قلب سياساتنا. ويجب أن نتذكر أن العمل لا يقتصر فقط على كسب العيش أو كم هو أجر الشخص، وإنما هو يتعلق أيضا بالمساهمة في الصالح العام والحصول على التقدير للقيام بذلك. فجائحة كورونا كشفت مدى عمق اعتمادنا على العمال الذين غالبا ما نغفلهم. فعمال النظافة، وعمال التوصيل، وعمال البقالة، وعمال الصيانة، وسائقو الشاحنات، والممرضين المساعدين، وعمال رعاية الأطفال، ومقدمو الرعاية الصحية... ليسوا بالعمال الأفضل أجورا أو الأكثر تشريفا وتكريما، لكننا الآن نعتبرهم عاملين أساسيين. وهذه لحظة للنقاش حول رفع رواتبهم وتقدير أهمية عملهم ومدى مساهمته في الصالح العام.



يتحدث ساندل عن معنى النجاح، ويؤكد أنه قد حان الوقت لنقدم على تحول أخلاقي، وحتى روحي (a moral, even spiritual, turning) للتشكيك في غطرستنا للاستحقاق. لذا علينا مساءلة أنفسنا: هل نستحق أخلاقيا المواهب التي تمكننا من النجاح؟ وهل من صنيعنا أن نعيش في مجتمع يقدر المواهب التي نمتلكها، أم أن ذلك هو حظنا السعيد؟ هنا يقر ساندل أن الإصرار على أن نحيا هو مستحق لي يجعل من الصعب أن أرى نفسي مكان الآخرين. وتقدير دور الحظ في الحياة أو الفرص التي أتاحت لنا أو فضل الله علينا يمكن أن يثير بعض التواضع. وروح التواضع يعتبره هو الفضيلة الوطنية التي نحن الآن في أمس الحاجة إليها. إنها بداية طريق العودة من أخلاقيات النجاح القاسية التي تفرق بيننا. وهي التي من شأنها أن توجهنا إلى ما وراء استبداد الجدارة إلى حياة عمومية أقل حقدًا وأكثر سخاءً.